اللغـــة العامية
في القرن الحادى عشر

للاستاذ على العمارى

فى مقال قيم نشرته الرسالة بعنوان (الألفاظ الأيوبيـة فى كتاب تقويم النديم) جاء ذكر كتاب (هز القحوف) للشربينى ، على أن صاحبه نسج على منوال صاحب تقويم النديم ، فأحببت أن أتحدث عن هذا الـكتاب ، كتاب هز القحوف

مؤلفه : لم أقرأ عن مؤلف هذا الـكتاب قليلا ولا كثيرا ، فليس لدى من المراجع ما يعينني على ذلك ، ولـكنى سأرسم له صورة استقيتها من كتابه هذا

هو الشيخ يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر الشربينى ، أحد علماء الأزهر ، وقد تلمذ للعالم الـكبير الشيخ شهاب الدين القليوبى ، وكان يعظ الناس ، ويعقد لهم مجالس فى طريقـه إلى الحج ، وهو من قرية شربين كما تدل عليه نسبته ، ولـكن آباءه لم يزاولوا ما يزاوله رجال القرى من الفلاحة ، وهو شاعر يقول القصيد والرجز والمواليا ، وله شعر لا بأس به ، وبالرغم من أنه أكثر فى كتابه من الألفاظ العامية إلا أنه حين يكتب بالعربية يجيد وهو يلتزم السجع على طريقـة أهل عصره ، ومن قوله : وقد ناب مؤلف هذا الـكتاب من كيد الدهر نائب ، ورمته الليالى بسهام المصائب . فأصبح بعد الجمع وحيدا ، وبعد الأنس فريدا . يسامر النجوم ، ويساور الهموم ، يسكب على فراق الأحبـة الدموع ، ويرجو عود الدهر وهيهات الرجوع

ياليت شعرى والدنيـا مفرقة بين الرفاق وأيام الورى دول
هل ترجع الدار بعد الأنس آنسة وهل تعود لنا أيامنا الأول

لـكن الصبر على غدرات الأيام ، من شيم السادة الـكرام

والمؤلف تارة يصف نفسه بالفقر والخلاعة ، وتارة يذكر أنه من آباء أمجاد ، يجالسون عظماء الدولة ، وأنه كان يعظ الناس فى طريق الحج . وقد ذهب إلى الأرض المقدسة مرتين فى سنة ١٠٧٤ ، وسنة ١٠٧٥ ، على ما ذكر فى كتابه . وهو كثير التطواف فى البلاد ، فمرة فى الصعيد ، وأخرى فى دمياط ، وثالثة فى بلده شربين ، ثم يرحل منها إلى القاهرة ... وهكذا .

موضوع الـكتاب : عنوان الـكتاب (هز القحوف فى شرح قصيد أبى شادوف) ويقول المؤلف فى مقدمته (وبعد فيقول العبد الفقير إلى الله تعالى يوسف بن محمد ... كان الله له ، ورحم سلفه ، أن مما مر على من نظم شعر الأرياف ، الموصوف بكثافة اللفظ بلا خلاف ، المشابه فى رصه لطين الجوالس ، وجرى ذكره فى بعض المجالس ، قصيد أبى شادوف ، المحاكى لبعر الخروف أو طين الجروف ، فوجدته قصيدا يا له من قصيد ، كأنه عمل من حديد ، أو رص من قحوف الجريد ، فالتمس منى من لا تسعنى مخالفته ، ولا يمكننى إلا طاعته ، أن أضع عليه شرحا كريش الفراخ ، أو غبار الفراش وزوابع السباخ . يحل ألفاظه السخيمة ، ويبين معانيه الذميمة ، ويكشف القناع عن وجه لثاثه القشرية ، ومصادره الفشكلية ، ومعانيه الركيكة ، ومبانيه الدكيكة ، وأن أتحفه بشرح لغات الأرياف ، التى هى فى معنى ضراط النمل بلا خلاف ، وأشعارهم المنترفة من بحر التخابيط ، واشتقاق بعض كلماتها التى هى فى الصفات تشبه الشراميط ، وذكر فقهائهم الجهال ، وعلمهم الذى يشبه ماء النخال ، وفقرائهم الأجلاف ، وأحوال الأوباش منهم والأطراف ... الخ)

ومن هذا التقديم نستطيع أن نفهم مايشتمل عليه الـكتاب ، وقد قسمه مؤلفه إلى جزءين ، جعل أولهما تمهيدا للثانى ، وشرح فى الثانى قصيد أبى شادوف ، ولئن كان صاحب كتاب تقويم النديم قد جاء بمقامة (طالعة من أولها إلى آخرها بضروب من الأحماض ، والفحش والمجون الذى لا يستساغ نشره) فإن الشربينى قد أسرف فى ذلك ، ولـكن هذا لا يمنعنا أن نشير إلى ما يمكن أن يستفيده الباحثون من هذا الـكتاب

فى هذا الـكتاب أمور على جانب كبير من الأهميـة ، فهو قد سجل اللغة العامية فى عصره ، وشرح معانى مفرداتها وما تدل عليه شرحا وافيا ، وهو قد تعرض للحالة الاقتصادية بإسهاب ، كما أنه وصف حال الحكام مع الشعب وحال الشعب مع الحكام

أدق وصف ، وفى أثناء الكتاب فوائد أدبية ، قصص ، وأشعار ، وأخبار من الأدب الرفيع ، وفيه شرح لبعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وهكذا ...

والمؤلف كعلماء عصره ، مغرم بالبديع كل الإغرام ، فهو لا يترك مناسبة تمر دون أن ينبه فيها على نوع من أنواع البديع ، ويظهر أنه كان واسع الاطلاع فهو يذكر كثيرا من الكتب ، وينقل عنها ، ويعنى عناية خاصة بذكر خواص الأطعمة وفوائدها ومضارها ، ولا سيما أطعمة أهل الريف

اللغة العامية : كتب أبو شادوف قصيدته باللغة العامية ، وضمنها شكوى زمانه ، وإخوانه ، وحكامه ، وأمنيات كثيرة فى تشهى بعض الأطعمة ، وتعرض الشارح لكل ذلك بالعامية مرة ، وبالعربية الفصحى أخرى . والذين يعنون بدراسة العامية وتطورها يجدون فى هذا الكتاب غناء لهم أى غناء . ويمتاز هذا المؤلف عن غيره بأنه إذا ذكر كلمة عامية شرح مدلولها شرحا وافيا ، وإذا كان مدلولها فى بلاد مختلفة شرح مدلولها فى كل مكان ، وإذا ذكر نوعا من الطعام الريفى بين طريقة صنعه فى كل إقليم ، وقد يذكر طريقة صنعه فى القاهرة . وهو دائما يذم الريفيين وطعامهم ، ويمتدح طعام القاهريين ، ولا سيما طعام الأتراك ، وتراه يقول فى ص ١٧٩ « أما الفطايف فإنها تعمل فى بلاد المدن من الدقيق الأبيض الخاص المفطب ، وتصب على صوانى صغار يقال لها الرقع من حديد أو من نحاس إلا أنها صغيرة مثل القرصة ، وهى ألذ هذه الأنواع وأطيبها خصوصا إذا قليت بالسمن ، وصب عليها عسل النحل ، ولله الحمد أكلنا منها مرارا ، وتلذذنا بها ، ونسأل الله تعالى أن يطعمها لإخواننا الفقراء ، ويعمهم بأكلها »

ويمكن بدراسة الكتاب دراسة دقيقة أن نعرف تطور بعض الكلمات العامية ، فمثلا (الكشك) كان يطلق فى عصر المؤلف على المحل الخارج من البناء المرتفع المركب على الأخشاب تجعله الأكابر للجلوس . والزربون كان يطلق فى عهده على ما يلبسه الفلاح فى رجله ، وهو فى قرانا له إطلاق آخر . وهكذا

الحالة الاقتصادية : يخيل إلى أن المؤلف وضع كتابه لهذا الغرض ، فهو لا يزال يذكر فى كل مناسبة ما يلاقيه الفلاحون من ضيق العيش ، وما يكابدون من الفقر ، ويذكر على ألسنتهم قصصا تصور سوء أحوالهم . وقد اتخذ من الجزء الخاص فى قصيدة الناظم بهذا الأمر ، موضعا للشرح والتطويل ، على أنه من أول الكتاب يضغط على هذه الناحية ، ويوليها عناية خاصة ، فهو يذكر أن بعض الفلاحين شمخ بأنفه وتاه على أخدانه ، ونال السعادة يوما ، وذلك أنه استحضر لزوجه سقطا ، فى يوم عيد ، فطلبت منه راتحة فقال ما معى فلوس ، فقالت له زوجه : من خلى شئ لعقب الزمان ينفعه ، أما خليت فى الصومعة أربع بيضات ، خذهم ولا تقل لحد فإن الناس تحسد الناس وخصوصا اليوم عيد وأنت اليوم فى نعمة كبيرة ، ثم يذكر الرجل أن السعادة تمت لهم حين اتى هو وزوجه فى كرش الحدى شوية فول صحيح ، ولكن الرجل ما يكاد ينتهى من ذكر قصته للناس حتى يقولوا له متعجبين مما نابه من السعادة : زمانك يا أبو عفرة ولى وراح ، ومات الناس ، وجار علينا الطالون

الحالة السياسية : أو حالة الفلاحين مع حكامهم ، والمؤلف كذلك يولى هذه الحالة عناية فائقة ، ويستطيع من يريد البحث أن يجد صورة وافية لظلم الحكام فى عصر المؤلف ، و معاملتهم للفلاحين ، بل إن جملة واحدة يذكرها المؤلف تدلنا أبلغ الدلالة على ما كان يعانيه الفلاحون ، فهو يقول : ولكن نحمد الله الذى أراحنا من الفلاحة وهمها ولم تكن لآبائنا ولا أجدادنا ، فالفلاحة على كل حال بلية أعاذنا الله والمحبين منها . ويقول فى موضع آخر : فلا بد على كل حال من تغليق المال ، ولو حصل من ذلك الهم والنكال ، كما فى المثل الذى اشتهر وعم : مال السلطان يخرج من بين الظفر واللحم ، وما دام على الفلاح شئ من المال فهو فى هم شديد ، ويوم السداد عند الفلاح يوم عيد . وهو يصف الكاشف ونزوله بالبلد ، كما يصف الملتزم وأفعاله ، من إرغامه الفلاح ولو كان فقيرا بإطعامه وإطعام أصحابه الذين معه ، وإطعام دوابه . وقد يربى الفلاح الدجاج ولا يأكل منه شيئا — ويحرمه على نفسه وعياله ، وكذلك السمن والدقيق يبقيه لأجل هذه (البلية) على حد قول المؤلف ، وهو وصف مؤثر جدا لا يغنى فيه إلا الاطلاع عليه .